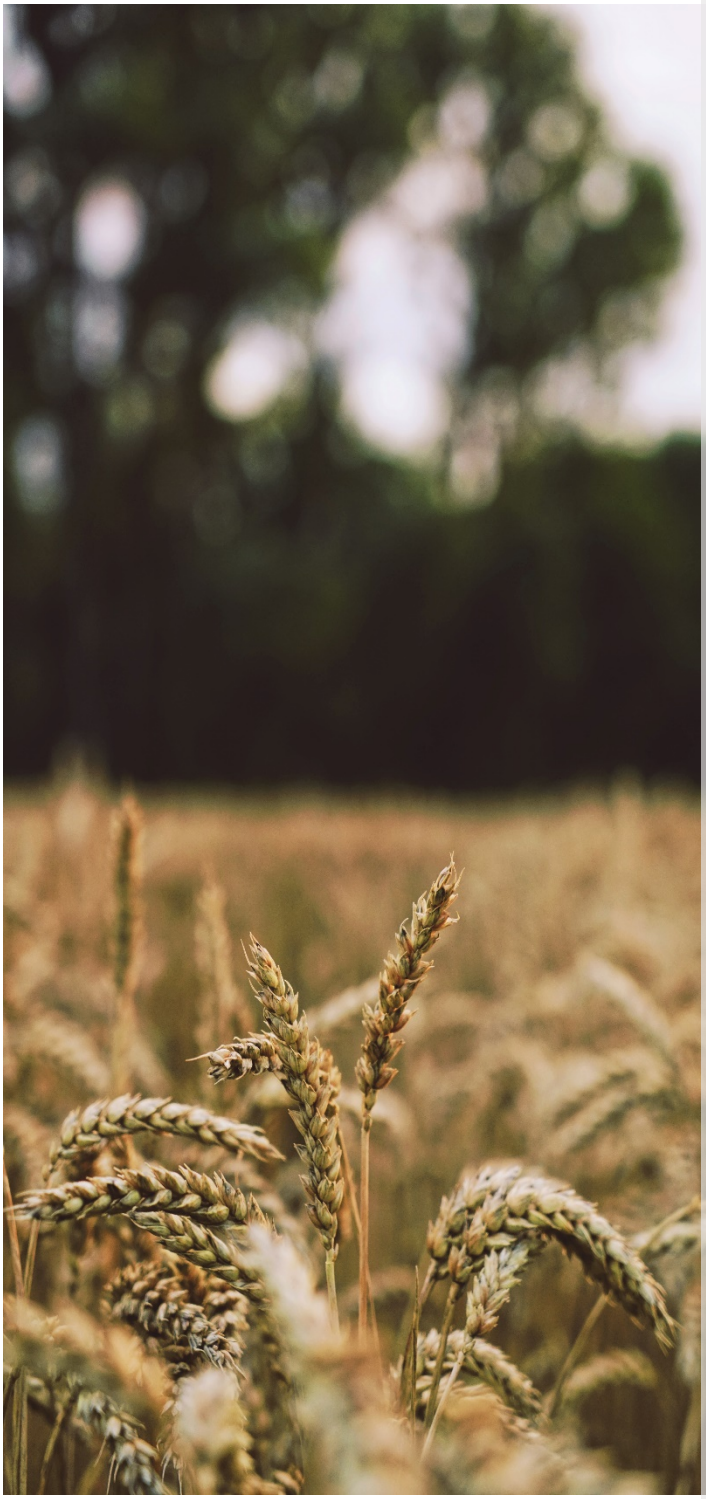

تفريغ محاضرة

التجارة في أعظم أيام الدنيا

رواء الاثنين | د. هند القحطاني

٢٩ / ١١ / ١٤٣٨ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةٌ نهلنا من معين محاضرات د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلّ جدٍ وحُبٍ على جمع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً إلى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:
info@rawaa.org

التجارة في أعظم أيام الدنيا

قصص كثيرة تروى عن أرباب هذه التجارة في مزادٍ عظيم غنائمه يعجز عن عدّها السائمون. **وسأبدأ معكم بقصة لعبد الله ابن المبارك** من التابعين الأفاضل يقول عنه أحد من رافقه: "كنت عنده فإذا برجل يسأله مالًا ليقضي عنه دينًا بسبعمائة درهم، فكتب ابن المبارك إلى عامله أن إذا جاءك صاحب الكتاب فأعطه سبعة آلاف درهم، فجاء الرجل إلى عامل ابن المبارك وكان في مدينة أخرى، فقال له: كم حاجتك يا رجل؟ قال إني طلبت منه سبعمائة درهم، فظن العامل أن ابن المبارك قد كتب خطأ فكتب إليه: إنّ الرجل قد طلب سبعمائة درهم، وإنك كتبت سبعة آلاف درهم! فإن يكن منك خطأ فاكتب إليّ حتى أعمل ما تريد. فكتب إليه عبد الله بن المبارك: " إذا أتاك كتابي هذا وقرأته، وفهمت ما ذكرت فيه، فادفع إلى صاحب الكتاب أربعة عشر ألف درهم". فكتب إليه العامل: "إذا كنت في كل مرة ستفعل مثل هذا بعنا الضيعة". فكتب إليه عبد الله بن المبارك: "إن كنت وكيلي فأنفذ ما آمرك به، وإن كنتُ أنا وكيلك فتعال إلى موضعي حتى أصير في موضعك، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **من فاجأ من أخيه المسلم فرحة غفر الله له** "[1]القضية ليست صدقه أعطيت لفقير؛ **بل كان يتاجر مع الله عز وجل فقد كان ينظر إلى حاجته إلى الله أشد من حاجة هذا الفقير إلى ماله هو**.

ونثنّي بقصة أخرى لصهيب الرومي الذي وقع أسيرًا في أحد المعارك فجاؤوا به إلى قريش فصار مولى من الموالي، وكان راميًا ماهرًا يرمي بالنبال، ثم أصبحت عنده أموال، وحينما سمع بالإسلام أسلم، فلما أسلم وأراد الهجرة حين هاجر النبي عليه الصلاة والسلام، سمعت بشأنه قريش فأرسلت إليه كتيبة حتى وصلوا إليه، وكان على شفى وادٍ مرتفع على جبل ورآهم فأخذ سهامه وقال: يا معشر قريش إنكم تعلمون أني من أرماكم، وإنكم لن تصلوا إليّ حتى أصيب منكم بعدد سهامي، وحتى أقتل بسيفي هذا

[1] أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، صحيح

ما حملتني يداي، فقالوا له: أتيتنا صعلوكًا فكثر مالك عندنا، وتريد أن تهاجر بمالك ونفسك! والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب:" أرأيتم إذا أرشدتكم إلى مكان مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم،

فقال: في المكان الفلاني، تحت الشجرة الفلانية، تحت الحصى الفلاني، ستجدون كل مالي. فسمحوا له بالهجرة، فلما وصل إلى أطراف المدينة، ورآه النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أوحى إليه جبريل بما كان، فقال له: "**ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى**". **ونزلت الآية الكريمة: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة 207]**[2]

بهاتين القصتين ننطلق للحديث عن **التجارة مع الله**، وهذه الأيام هي أيام التجارة مع الله؛ أيام عشر ذي الحجة، يخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام ويقول: "**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام**"_ **يعني أيام العشر** _ **قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال :" ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**". [3]

نحن مقبلين على أيام استثنائية. وهذه الأيام تأتي على غفلة. يقول بعض العلماء عن هذه الأيام: "**إنها أفضل من الليالي العشر في رمضان**". حينما نذكر رمضان وإقبال الناس، اجتهادهم، وإخبات قلوبهم في رمضان. وأيضًا أيام عشر ذي الحجة، فهذه الأيام التي سنقبل عليها أيام عظيمة؛ هذه الأيام نهارها فضيل، وهو أفضل من نهار رمضان، فنحن نحتاج إذن أن نعرف كيف نتاجر مع الله - عز وجل- في هذه الأيام؟!

هذه العشر هي نفحة من نفحات الله سبحانه يضعها في أيام الدهر، لذلك قيل: "**إن لربكم في أيام دهركم نفحات**"[4] وهذه النفحات مثل الهواء والنسيم الذي يأتيك على قلب ظامئ تأتي من الله - عز وجل -، فيرفع فيها الإنسان من عمله الصالح ما لم يرفعه في باقي الأيام. فما عندك من عمل صالح قدّمه في هذه الأيام.

[2] أخرجه الحاكم، صحيح
[3] أخرجه البخاري
[4] أخرجه الطبراني، قال الألباني: صحيح

نحن لا نتكلم عن شهر ولا شهرين ولا سنة، **نحن نتكلم عن تسعة أيام فقط،** والسباق ومداه قصير جدًا، وأنت تستطيع أن تسابق، بل يجب أن تحاول السبق ما أمكنك؛ **لأنه لا يوجد فرص أخرى هي أيام قليلة، فلو فرطنا في يوم واحد فرطنا في شيء كثيرا.**

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :" **أفضل أيام الدنيا أيام العشر**"[5]
فإذا بلّغنا الله سبحانه وتعالى أيام العشر فنحن قد دخلنا في أفضل أيام الدنيا، هذا التعبير من النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحصر يعني أن نشدّ المئزر، ونخرُج من هذه الأيام بتجارة كبيرة لم نكن بمثلها من قبل. وإن نحن دخلنا هذه الأيام بفكرة المتاجرة مع الله، فما هي الأعمال التي بوسعنا أن نقوم بها كي نفوز ونكون أعظم الناس ربحًا وأجرًا بإذن الله؟!

سنجمل الحديث في أمورٍ ثلاثة: أعظم الناس أجرًا في هذه العشر أعظمهم نية

وعظم النية يبدأ من الآن، فالأعمال التي تنوي القيام بها في العشر، وكل ما يأتيك من عزم وهمة تؤجر عليها بإذن الله، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة** "[6]فهناك أناس إذن تبدأ أجورها الآن بمجرد العزم والإرادة القلبية، والله واسع عليم. **أجرك على قدر نيتك، ليس على قدر ما عملت**! وهذا من كرم الله عز وجل، فهو لا يحاسبنا على قدر العمل وإنجازه فقط؛ لكنه سبحانه يعطي الأجر على قدر ما نويت حتى لو حال حائل دونك.

[5] أخرجه ابن حبان، قال الألباني: صحيح.
[6] أخرجه البخاري ومسلم

قال صلى الله عليه وسلم :(**أحدثكم حديثا فأحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربه ويصِلُ فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًّا ؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ؛ فهو بنيته ، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا فهو يخبِط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعمل لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء**) [7]

القصد من هذا كله أن نيتك ترفعك أو تحطّك، وهذان المثلان السابقان يوضحان هذا المقصد، فالذي لم يكن له مال رفعته نيته فصار مثل الذي يتصدق، والآخر نزلت فيه همته ونيته وأصبح مثل الذي يفسق بماله.

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يوصي ابنه ويقول:" **يا بني انوِ الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير** ".

وكان دائما ما يحدّث ويقول:" **تعلموا نية الخير**". فالواجب علينا أن نكثر من النوايا الصالحة بدخول العشر، أن ننوي الخير ونجعل البلاغ على الله عز وجل. ونسأله المعونة لتحقيق هذه النية دون تهاون فالله سبحانه يطَّلع على النية والعزم ويعلم إن حال دونه حائل.

نبدأ هذه النوايا بالفرائض كصلاة العشاء مثلًا، فنحتسب فيها أداء الفريضة، ونحتسب فيها أجر الصلاة على وقتها؛ لأن أحب الأعمال إلى الله تعالى الصلاة على وقتها، ونحتسب أيضا أن نكون قدوة فيها لغيرنا، ونحتسب فيها التقرب إلى الله "ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ". فاجعل أداءك للفرائض قربةً له سبحانه.

قال حسان بن عطية. :"**أن رجلان يصلون الصلاة الواحدة في صف واحد وما بينهما ما بين السماء والأرض**"؛ لأن نواياهم تختلف.

[7] أخرجه الترمذي، قال الألباني: صحيح

وهذا يذكرنا بكلمة ابن عثيمين رحمه الله حين سأله رجل ما الذي يغفره الله لي عندما أقول "**ربي اغفر لي، ربي اغفر لي" ما بين السجدتين؟ فقال: يغفر الله لك ما نويته وما مرّ في خاطرك**!!

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " : **من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل** [8]

إذن القضية ليست كمًا وإنما كيفًا لذلك الرسول عليه الصلاة والسلام يقول":

اتقوا النار ولو بشق تمرة"[9]

وقد قيل:

ربَّ عملٍ صغير تعظمه النية، وربّ عمل كبير تصغره النية؛ هذه النية تصل إلى الله - عز وجل- ، ويتقبلها الله كما قصدت أنت في قلبك. يقول معن بن يزيد: أخرج أبي دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد، فجئت فأخذتها فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" **لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن** ". [10]

ولنا عبرة في قصة الرجل الذي تصدق على زانية ثم على غني ثم على سارق ثم قيل له في آخر الحديث " **أمّا صدقتك على سارقٍ؛ فلعلَّه أنْ يَستعِفَّ عن سَرِقَته، وأمَّا الزانيةُ؛ فلعلَّها أنْ تَستعِفَّ عن زِناها، وأمَّا الغنيُّ؛ فلعلَّه يَعتبرُ فيُنْفِقُ مما أعطاهُ الله**"[11]

ومن أعظم ما يمكن احتسابه بعد الفرائض، **احتساب النوافل**، فالذي لا يحافظ على نوافل الصلوات ينبغي عليه في هذه العشر الاستثنائية ألاّ يضيّع على نفسه عظيم أجرها، ألا تريد

[8] أخرجه البخاري
[9] أخرجه البخاري ومسلم.
[10] أخرجه البخاري
[11] أخرجه البخاري

أن تبني لك في كل يوم بيتًا في الجنة!

في هذه الأيام نحن لا نفعل الخير فقط لزيادة الحسنات، وإنما هذه الأعمال تربينا، وسنرى أن هذه الحسنات ستضاعف النور في قلوبنا، وكلما كبر هذا النور زاحم ظلمة الشر، كما هو حال الكأس المتسخ كلما غمره الماء وبدأ يفيض من جوانبه أسهم ذلك في إزالة العلائق التي تحول دون نقائه. وكذلك الشأن في قلوبنا كلما أكثرنا من الحسنات ساهمنا في إزالة السواد العالق بهذا القلب، **بل سنصل إلى مرحلة التخلي عن الأشياء التي لم نوطن أنفسنا على التخلي عنها**؛ بل مهما كنا نظن أن عملًا من الأعمال التي ترضي الله - عز وجل - بعيد المنال في تحقيقنا له، فلعل هذه الحسنات البسيطة والنور الذي يعمر قلوبنا بها يزاحم الشر ويقاتله، فتقوم معارك في رحى النفس نقف إزاءها في صف الهوى، ونريد نصرة أهوائنا، فيتعارك داعي الإيمان وداعي الشر داخل هذه النفس ثم ينتصر الخير في النهاية؛ لأن الخير قد تكاثر بأعمال صغيرة كنا نظن أنها لن تفعل شيئًا. **عمل الخير كفيل أن يزيد الإيمان، الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي.**

ومن الاحتساب أيضا؛ احتساب فوات الحج، لا سيما لمن لم يحج بعد، ففوات الحج ليس فواتًا بسيطًا. لقول الرسول عليه السلام:" **الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة** "[12]، ليس فقط الجنة بل ذكر النبي _صلى الله عليه وسلم _في إحدى روايات الحديث الذي تحدث فيها عن نزول الله عز وجل في يوم عرفة ومباهاته عند الملائكة بهؤلاء العباد الذين وقفوا على هذا الصعيد، وأن قد غفرت لهم ذنوبهم، ورجعوا كيوم ولدتهم أمهاتهم. يقول الله - عز وجل:"**وأني قد غفرت لهم التبعات**"[13]

هذه التبعات هل التي تقصم الظهور يوم القيامة، التبعات ليست ذنوبًا وسيئات، بل هم الناس المتعلقون برقابنا؛ إما لإضلال لهم أو ظلم أو غيبة أو كذب أو نميمة، أو ربما أبسط من ذلك بكثير ربما في نبرة صوت علت على عامل.

[12] أخرجه البخاري ومسلم.
[13] أ خرجه أبو نعيم، قال الألباني: ضعيف.

لذا الإنسان محتاج إلى الكثير من الحسنات ليذهب هذه السيئات.

إذن في هذه الأيام حينما نرى منظر الحجيج في مزدلفة أو في عرفة نحتسب هذا الفوات العظيم، فوات الحج، وفوات مغفرة التبعات، هذا الاحتساب يدفع الإنسان إلى أن يتساءل: **ما الذي يمكنه فعله ليغفر الله له مثل ما غفر للحجيج!** يقول النبي عليه الصلاة والسلام:" **من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**[14]"، فلك حسنة بكل مؤمن أنت دعوت له هذه الدعوة البسيطة: " **اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات** ". ولو أضفنا: "**الأحياء منهم والأموات**"، بلغ دعاءك كل الذين أسلموا ووحدوا الله - عز وجل- من عهد آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. فكم من الأجر قد تحقق لنا مقابل هذا الدعاء البسيط! فإذا دعونا لأمواتنا ينبغي أن نشمل جميع المؤمنين والمؤمنات؛ لأنه قد يكون منهم من ظلمناهم أو اغتبناهم أو كذبنا عليهم. **فينبغي أن نجاهد بكثير من الحسنات لنزاحم هذه السيئات.**

يقول النبي عليه الصلاة والسلام ":**لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه " قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة فقال : "حبسهم العذر**[15]"

ويقول عليه الصلاة والسلام ": **من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كُتِب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه عز وجل**[16]"

فقد كُتب له أجر القيام فقط بالنية الصادقة، فلابد أن أُعمل نيتى طوال الوقت .و العمل الواحد قد يحتمل خمس أو ست نوايا وفضل الله واسع.

[14] أخرجه الطبراني، قال الألباني: حسن.
[15] أخرجه البخاري ومسلم
[16] أخرجه النسائي، قال الألباني: صحيح.

أعظمهم أجرًا أكثرهم إخلاصًا. نحن لا نريد أن نعرف فقط أصناف الأعمال التي بإمكاننا أن نقوم بها في هذه العشر؛ بل نريد أن نعمل العمل ويكتب لنا ثقيلًا في الميزان، ولا يُثقل العمل شيء في الميزان مثل ابتغاء وجه الله سبحانه. هذه الكلمة فقط (ابتغاء وجه الله) كفيلة أن ترفع الإنسان أعلى المنازل. **جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله ما الايمان؟ قال: "الإخلاص"**[17]. اختصار النبي عليه الصلاة والسلام كل الإيمان بالإخلاص، هذا لأنه أعلى مقامات الإحسان.

إخلاص العمل لله مطلب. لكننا لا نريد أن نصل له فحسب؛ بل بإمكاننا أن نتقدم فيه خطوة، ونخلص حياتنا كلها لله عز وجل. مثل أننا لا نريد بعملٍ ما مثل (الصدقة، الصلاة ...) إلا وجه الله تعالى، نستطيع أن نقول أننا لا نريد من حياتنا كلها إلا الله. فنكون كما قال الله في كتابه: **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأنعام 162]

أمثلة حياتية بسيطة تدخل في هذا المضمار؛ مثلًا حُبُّ الزوج. هل حُبُّ الزوج يتعارض مع إخلاص الحياة لله؟ بالتأكيد لا يتعارض؛ **بل إنّ حُبّ الزوجة لزوجها وحسن تبعّلها له فيما يرضى الله عز وجل هذا من حُبِّ الله؛ بل ويزيدها عنده مرتبة لأن هذا الحب الفطري مما يؤجر عليه الانسان**. وكذلك حُبُّ الأولاد والأسرة. هذا حُبٌّ مأجورٌ عليه، ويرفع منزلة محتسبه عند الله - عز وجل- . وهذا من إخلاص الحياة لله، طالما أنّ حبهم لا يقتضي عليك معصية الله أو التنازل لشيء من المحرمات من أجلهم. فإذا فعل الإنسان الحرام أو قدّم التنازلات في الدين لأجل أحد، فحياته ليست مخلصة لله. كذلك من الأمثلة أن المرء يستطيع كل صباح وهو ذاهبٌ إلى عمله يذهب مخلصًا لله، ليس في خلد همه التقييم من قِبل البشر، وإنما المهم عنده هل رضي الله عنه أم لا؟!

[17] أخرجه البيهقي، قال الألباني: صحيح.

الإحسان في العمل وإتقانه ليس لأجل الدنيا. احتساب المرء من أجل الدنيا سهل، لكننا نناقش مرتبة أعلى، ولو أتينا بهذا الأعلى فما دونه آتٍ لا محالة، أليس "**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس**"![18] فالرضى الذي يريده الإنسان من الناس سيأتيه إن حدد الوجهة إلى الله تعالى أولًا. فالمفهوم الذي نريد تعزيزه **أن نحاول أن نُخلص حياتنا كلها لله.**

دراسة تخصص معين مثلًا، لا يكون المقصد منه فقط حُبّ هذا المجال؛ بل يكون هذا المجال أرضًا خصبة يقدم فيها الإنسان لوجه الله ولينفع دينه وأمته. هذا لا يعني أن يعارض الإنسان رغباته؛ بل أن يجعل رغباته ضمن ما يريده الله - عز وجل-. هؤلاء أناسٌ يجعلون من الستين أو السبعين أو الأربع والعشرين سنة حياةً مفعمة بالخير، يتضاعف لهم فيها من الحسنات ما تقرّ به أعينهم في الآخرة بإذن الله.
توفي أحد طلاب الجامعة هذا الصيف، وكان من الطلاب النشيطين في الأعمال التطوعية، قرأتُ تغريدةً لأحد أصحابه يقول فيها عنه: ,, **ماذا تركت يا عبدالرحمن! عشرون عامًا عشتها وكأنها ستون عامًا** ,,. هؤلاء أناس لم يعيشوا الحياة بالطول لأن أعمارهم لم تطل، إنما عاشوها عرضًا أوسعوه بأعمال الخير فبلغت أنصبة أحدهم و كأنه قد عاش ستون عامًا، لأنه كان في قليل عمره خالصًا لله.

ومن أعظم الأعمال في أيام العشر؛ **الصيام**، ويقال **إن الصيام هو عنوان عبادات الإخلاص؛ لأنه نادرًا ما يدخل فيه الرياء**، فالمرء إن أراد أن يبطل صيامه فلن يعلم عنه أحد إلا الله. فإن استطعت أن تصوم هذه العشر فصُم، لأنك ستدخل في تجارة عظيمة مع الله - عز وجل-، ولو كنت لا تستطيع من الصيام إلا يوم أو يومين فقدمهما، وقدّم ما تستطيع فعله.

[18] أخرجه ابن حبان، قال الألباني: صحيح.

أحيانًا ببركة عمل شخص واحد في البيت يقتدي به أكثر أهله، فيكون له مثل أجورهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، **فنحن إذن في سباق**. كل ساعة من هذه العشر فارقة. كل ساعة ينبغي على المرء أن يسأل نفسه: ما الشيء الذي يمكنني استثماره؟ وبمجرد صيامه لله - عز وجل- ستجري له من الحسنات ما الله به عليم، يقول الله - عز وجل- في الحديث القدسي: "**إلا الصوم فإنه لي وانا اجزي به**". [19] ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:" **مَنْ صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا** " [20]لنضرب سبعين في تسعة أيام، **كم ذخائر الأجر المرجوة من الله عز وجل؟!**

فأكثر من أبواب الخير التي تطرقها واجعل شيئًا بينك وبين الله عز وجل من تفريج كربة أو غيرها، هذا شأن عظيم. يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "**من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل**"[21]. يقول النبي عليه الصلاة والسلام : "**وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة ، السِّر بالسِّر والعلانية بالعلانية** "[22] **فخبيئة السر التي يفعلها المسلم تذهب ذنوب خلواته**، وفي دواخلنا معارك ذنوب تعرفها الناس عنا، وذنوب لا يعرفها إلا الله. فهذا الهتك الذي بينك وبين الله من الذنوب إن أرّقك وأوجعك وأحسست أنه نزف لا تعلم كيف توقفه؟! **فأعمال السِّر وذلك الخبء الصالح يوقف هذا النزيف الموجع من ذنوب الخلوات. وكذلك العلانية من الذنب بالعلانية من العمل الصالح**، فإذا كنت قدوة لغيرك في الشَّر، كن قدوة له في الخير. **كلبس العباءة المزيّنة** تقلّد صاحبتها فيها الكثيرات، ثم إن تابت وغيّرت تلك العباءة إلى شيء ساتر يرضي الله ستكون قدوة لهم في الخير.

[19] أخرجه البخاري
[20] أخرجه البخاري ومسلم.
[21] أخرجه ابن أبي شيبة.
[22] أخرجه الطبراني، قال الألباني: حسن.

قال تعالى في الحديث القدسي: "**إذا تقرَّب العبد إليَّ شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا، وإذا تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَة** [23]

القضية ليست مقايضات خطوة بخطوة، **القضية أن الله سبحانه كرمه وفضله أوسع من خطانا وقرباتنا**.
روى أحد التابعين عن شخص في زمنهم يُدعى **أبو نصير الصَّياد**، رجل فقير كان مصدر قوته صيد السمك، فلم يظفر بصيد مدة حتى تضوَّر ابنه وزوجته جوعًا، فمضى يومًا مهمومًا مغمومًا يسأل الله تعالى الفرج من هذا الضنك، **فمرَّ على شيخه أحمد بن مسكين**، فقرأ الشيخ في وجه تلميذه معاناة الفقر والجوع، فقال له: اتبعني إلى البحر فلما بلغا مكان الصيد قال الشيخ لتلميذه: صلِّ ركعتين على نية التيسير واسأل الله تعالى الرزق الحلال الطيب. ففعل، ثم قال له: سم الله، فكلٌّ شيء بأمر الله ثم ألق حبالك، فرمى ثم غنم بسمكة عظيمة، فقال له الشيخ: بعها واشتر بثمنها طعامًا لأهلك. فانطلق إلى السوق فباعاها واشترى بثمنها فطيرتين؛ إحداهما باللحم والأخرى بالحلوى، وذهب إلى شيخه ليُقدِّم له إحداهما اعترافًا بجدوى نصيحته له. فردّ الشيخ الفطيرة وقال له: **هي لك ولعيالك لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة،** فذهب أبو نصير إلى بيته وفي طريقه قابل امرأة تحمل طفلًا وتبكي من الجوع فنظرا إلى الفطيرتين في يده، فذكّره حالهما بزوجته وابنه، وتحيّر في شأنه ماذا بوسعه أن يفعل! فلم يحتمل دموع الضعف من تلك المرأة فقدَّم لهما كلتا الفطيرتين، فظهرت أسارير الفرح والغبطة على محيّاهما، وعاد أبو نصر صفر اليدين يقلّب تفكيره في شأن زوجته وولده، وهو على تلك الحال في طريقه إذ سمع مناديًا يقول: من يدلُّ على أبي نصر الصيَّاد؟ فدلَّه الناس إليه، فقال له الرجل: إنَّ أباك قد أقرضني مالًا منذ عشرين سنة ثم مات ولم أوفِّها له فخذ هذه ثلاثين ألف درهم مال أبيك، هو لك. يقول أبو نصر الصيَّاد وتحولتُ غنياً بإذن الله تعالى وكثر مالي، وملكت البيوت وفاضت تجارتي، وصرت أتصدَّق بالألف درهم في المرة الواحدة شكرًا لله تعالى.

[23] أخرجه البخاري.

ومرت الأيام وأنا أكثر من الصدقات حتى أعجبتني نفسي، وفي ليلة من الليالي رأيت في المنام أن الميزان قد وضع ونادى منادٍ: أبا نصر الصياد هلمّ لوزن حسناتك وسيئاتك، فوضعت حسناتي ووضعت سيئاتي، فرجحت السيئات!

فقلت: أين الأموال التي تصدقت بها؟ فوضعت الأموال، فإذا تحت كل ألف درهم شهوة نفس أو إعجاب بصنيع كأنه لفافة من القطن لا تساوي شيئًا، ورجحت السيئات، فبكيَت حتى كادت نفسي أن تذهب وأحشائي تتقطع، وقلت ما النجاة؟ فسمعتُ المنادي يقول: هل بقي له من شيء؟ فأسمع الملك يقول: نعم بقيت له رقاقتان وتوضع الرقاقتان (الفطيرتان) في كفة الحسنات، فتهبط كفة الحسنات لتتساوى مع كفة السيئات، وما زلت خائفًا!

فإذا بالمنادي مرة أخرى يقول: هل بقي له من شيء؟ فيقول له الملك: نعم بقي له شيء، قلتُ: وما هو؟ قيل له: دموع المرأة التي كففتها حين أعطيتها الرقاقتين، فوُزِنت الدموع فإذا بها كالحجر الصقيل وزنًا، فثقلت كفَّة الحسنات، ففرحت فرحًا شديدًا. وإذا بالمنادي مرة ثالثة يقول: هل بقي له من شيء؟ فقيل: نعم ابتسامة الطفل الصغير حين أعطيَت أمُه الرقاقتين، فترجح كفّة الحسنات وترجح ..

وأسمع المنادي يقول: **لقد نجا، لقد نجا. فاستيقظتُ من النوم فزعًا أقول ما قاله لي أحمد بن مسكين حين ردَّ إليّ إحدى الفطيرتين: لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمكة.**

لذلك إذا أردت أن تعمل عملاً فاعمله لوجه الله سبحانه وتعالى وأنت مخلص فيه لتكون العواقب محمودة مشكورة من ربٍّ واسع الفضل جزيل الإحسان.

أعظمهم أجرًا أعظمهم اجتهادًا. إنَّ الأيام الفضيلة القادمة أيام اجتهاد محض؛ فما استطعت أن تستنفذ فيها وسعك في طاعة الله - عز وجل- فافعل. يقول النبي عليه الصلاة والسلام :" **أيما مسلم رمى بسهم في سبيل الله ، فبلغ مخطئًا أو مصيبًا ، فله من الأجر كرقبة أعتقها من ولد إسماعيل وأيما رجل شاب في سبيل الله ، فهو له نور ، وأيما رجل أعتق رجلًا مسلمًا ، فكلّ عضو من المعتق بعضو من المعتق فداء له من النّار ، وأيّما رجل قام وهو يريد الصلاة ، فأفضى الوضوء إلى أماكنه سلم من كل ذنب وخطيئة هي له ، فإن قام إلى الصلاة رفعه الله تعالى بها درجة وإن رقد رقد سالمًا** [24]"

ومن الأعمال التي هي مجال للاجتهاد في العشر وتكون في الموازين مضاعفة _بإذن الله _ **الاستغفار**. فأيام العشر هي أيام ذكر لله -عز وجل- **من تكبير، وتسبيح، وتهليل، واستغفار؛** فأما الاستغفار فقد ترد له صيغ تجعله عظيمًا مضاعفًا في الأجر، ثقيلًا في الميزان. فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" **من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفِر له وإن كان فر من الزَّحف**".[25]الفرار من الزحف من السبع الموبقات بمنزلة السحر والكفر والقتل، فحين يكون لدى الإنسان معاصٍ كبيرة تؤرِّقه، فلا يكون استغفاره عاديًا، ليلهج بمثل هذا الدعاء الآنف الذكر. عن جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها **أن النبي صلي الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلي الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : " ما زلتِ على الحال التي فارقتكِ عليها ؟" قالت : نعم ، قال النبي صلي الله عليه وسلم : " لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزِنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته** " [26]

[24] أخرجه الطبراني، قال الألباني: صحيح.
[25] أخرجه الترمذي، قال الألباني: صحيح.
[26] أخرجه مسلم.

ومن جليل الأعمال **عيادة المريض** يقول النبي عليه الصلاة والسلام:" **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا إِلَّا ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ كَانَتْ حَتَّى يُمْسِيَ، وَأَيَّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ كَانَتْ حَتَّى يُصْبِحَ** [27]" فهذا العمل بسيط، ولكن الأجر ليس بسيطًا، **القضية هي أن تجتهد بحثًا عن الأجر الصالح الذي تحصله .**

وكذلك في سياق الاجتهاد **دعوة الإنسان غيره إلى العمل الصالح الذي يعمله**، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه**"[28]

كأن نحافظ على صلاة الشروق بالجلوس لها من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس لنحصل على أجرها العظيم "**كأجر حجة وعمرة تامة**"[29]، ونحضُّ غيرنا على ذلك ليتحصَّل له مثلما نحصِّل. والامتحان هذه المرة قصير فقط تسعة أيام! فلنبذل فيها أضعاف جهدنا فالغنائم لا تعوّض.

أيضًا مما يُسن في أيام العشر: **التكبير المطلق** فيكون المرء جلّ وقته ذاكرًا لله تعالى رافعًا صوته بالتكبير "**الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر ولله الحمد**" مذكّرًا نفسه وأهل بيته وأصحابه. كان الصحابة رضوان الله عليهم يخرجون إلى الأسواق يكبرون فيُكبِّر الناس بتكبيرهم. يقول من يصفون هذا المشهد: فكأنهم موج هادر من كثرة التكبير. هذا العمل من الأعمال المضاعفة، شيء بسيط لكنه يُكتب مضاعفًا.

فلنذكر أنفسنا في بيوتنا، ونرفع صوت التكبير كي يذكرنا في كل لحظة من هذه الأيام الاستثنائية، وننشر هذا الخير بين الناس ليكون لنا أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة، وأما **التكبير المقيّد** فيكون من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق؛ وهو التكبير الذي يسن بعد الصلوات فقط، والتكبير المطلق أيضًا مفتوح إلى أيام التشريق.

---

[27] أخرجه أحمد، قال الألباني: صحيح.
[28] أخرجه مسلم.
[29] رواه الترمذي أخرجه الترمذي، قال الألباني: صحيح.

ومن قصص الاستئناس في الثبات على الخير والاجتهاد به وإدراك بركته؛ قصة ثلاث فتيات قررن أن يقتطعن من مصروفهن الشهري مئة ريال ويجمعنها كل شهر لعمل خيري، فلما أدركوا بركة هذا الاقتطاع اليسير مباشرة زادوا الاقتطاع إلى مئتين كل شهر والله يضاعف ويبارك لهن إلى أن جعلوا الاقتطاع خمسمئة ريال، واستمروا على ذلك سنوات، بعثوا فيها أكثر من ألف كتاب حول العالم، وحفروا بها أكثر من ثلاثة عشر بئر ارتوازي، وكفلوا بها أيتامًا، **هذا كله لأنهم ثبّتوا على عمل قليل، لكنه عظيم عند الله- عز وجل - وله من البركة.**

وفي اجتهادات الإنسان إلى الخير وسعيه الدؤوب لتحصيل عظيم الأجر من الله سبحانه عليه **أن يترك له إرثًا بعد موته؛ وإرثه الحقُّ هو عمله الصالح**، فهو الذي سيبقى معه ويظل دارًّا عليه بالحسنات إلى قيام الساعة ولذلك جاء في الحديث "**من علّم علمًا، أو أجرى نهرًا، أو حفر بئرًا أو غرس نخلًا أو بنى مسجدًا أو ورّث مصحفًا**"[30]

كلها تتكلم عن أعمال صالحة لا تنتهي بموت الإنسان، وهو ما يُسمّى بالنفع المتعدي، فلا يجعل المرء عمله قاصرًا على أيام دنياه؛ بل يحاول أن يكون نفعه متعديًا باقيًا حتى بعد موته.

هناك شخص من مصر كانت له هواية المراسلة عبر البريد الإلكتروني، وله مجموعات في البريد ويتعرف على أناس مختلفين من خلاله، والمشروع لم يقم على شيء من الخير، ثم فتح الله على قلبه وتاب إلى الله - عز وجل- وحسنت حياته بعدها، فقرر أن يستخدم هوايته في الدعوة إلى الله وأصبح يُعدُّ رسائل توعوية عن الإسلام، ورمضان، والإفطار وغيرها. يرسل مئة ألف بريد. **فكانت النتيجة أن أسلم على يده أكثر من أربعة آلاف شخص!** وهو جالس أمام جهازه فقط، لم يكن يناقشهم وإنما يحيلهم إلى مواقع معروفة متخصصة بشأن الدعوة والتعريف بالإسلام ثم يسلمون، **المحصِّلة من هذا العمل هو نفع متعدٍ؛**

[30] أخرجه أبو نعيم، وقال الألباني: حسن.

فكلُّ صلاةٍ يصليها هذا المسلم الجديد؛ وكل دعوة وعمل يقوم به سيكون له مثل أجره وفي ميزانيه إلى يوم القيامة.

وفي ختام حديثنا عن هذه العشر المباركات، أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يوفّق لدخول هذه التجارة الرابحة، ويغنم الفوز برضى الله - عز وجل-. دوننا ميدان السِّباق فمن سبق فيه فاز، ومن تأخر خسر كثيرًا. فنسأل الله ألا يجعلنا من المتأخرين.

والحمد لله رب العالمين. والصلاة السلام على نبينا محمد واله وصحبه أجمعين.

*تنويه: مادة المحاضرة جُمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها.